الباب السابع

ذكر مدينة تنبكت ونشأتها

ذكر تنبكت ونشأتها ، نشأتْ على أيدى طوارق مفشرن ، فى أواخر القرن الخامس من الهجرة ، فنزلوا فيها راتعين . وفى وقت الصيف فى ساحل البحر فى قرية امظغ ينزلون ، وفى وقت الخريف يرتحلون ويصلون اروان مناذلا ويبدلون ، وهى حدِّهم فى العوالى .

ثم اختاروا موضع هذه البلدة الطيبة ، الطاهرة ، الزكية ، الفاخرة ذات بركة ونجعة وحركة ، التى هى مسقط رأسى ، وبُغية نفسى ، ما دنَّستها عبادة الأوثان ، ولا سُجد على أديمها قط لغير الرحمان ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين ، وملتقى الفلك السيَّار ، فجعلوها خزانةً لمتاعهم وزروعهم ، إلى أنْ صار مسلكاً للسالكين فى ذهابهم ورجوعهم وخازنهم [١] أمتهم مدعوة بتنبكت ومعناه فى لغتهم العجرة ، وهى بها فسُمِّيتْ الموضع المبارك بها .

ثم أخذ الناسُ يسكنون فيه ويزداد بقدرة الله تعالى وإرادته فى العمارة ، ويأتيه الناسُ من كل جهة حتى صار سوقاً للتجارة . وأكثر الناسُ إليه وروداً للتسوق أهل رغد ، ثم أهلك تلك الجهة كلها ، وكان التسوق قبلُ فى بلدة بير وإليه يرد الرفاقُ من الآفاق ، وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة .

(أجناس السكان فى تنبكت)

ومن كل بلاد من أهل مصر ، ووجل [٢] وفزان ، وغدامس ، وتوات [٣] ودرعة ، وتفلالة ، وفاس ، وسوس ، وبيط إلى غير ذلك ، ثم انتقل الجميع إلى

---

(١) خازنهم : أي تتولى حفظ الأشياء .

(٢) وجل : نسبة إلى إقليم أوجلة فى ليبيا .

(٣) توات : هى واحة تقع فى الصحراء الكبرى الإفريقية ، وتقع على الطريق الذى يربط تلمسان ببلاد السودان . انظر ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ـ ١٩٦٨م ـ ج ٦ . ص ١١٧ ، ١١٨ .

تنبكت قليلاً قليلاً ، حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها ، فكانت عمارة تنبكت خراب بير ، ولم تأته العمارة إلا من المغرب ، لا فى الديانات ولا فى المعاملات .

(تطور بناء مدينة تنبكت)

فأول الحال كانت مساكن الناس ، فيه زريبات الأشواك وبيوت الأخشاش ، ثم تحولوا عن الزريبات [١] إلى الصناصن ، ثم تحولوا عنها إلى بناء الحيوط أسواراً قصاراً جداً ، بحيث منْ وقف فى خارجها يرى ما فى داخلها ، ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الإمكان ، ثم مسجد سنكرى [٢] كذلك . ومنْ وقف فى بابه يومئذ يرى منْ يدخل فى مسجد الجامع لأجل تخلية البلد من الحيطان والبنيان . وما ثبتت عمارته إلا فى أواخر القرن التاسع . وما تكاملت البناء فى الالتصاق والالتئام إلا فى أواسط القرن العاشر فى مدة اسكيا داوود ابن الأمير إسكيا الحاج محمد .

(التطور السياسى لتنبكت)

فأول منْ ابتدأ فيه الملك ، كما تقدم أهل ملى . ودولتهم فيه مائة عام ، وتاريخه من عام سبعة وثلاثين فى القرن الثامن ، ثم توارق مفشرن ، ودولتهم فيه أربعون عاماً ، وتاريخه من عام سبعة وثلاثين فى القرن التاسع ، ثم سن على وتاريخه من عام ثلاثة وسبعين فى القرن التاسع . ومدة مُلكه فيه أربع وعشرون سنة .

ثم أمير المؤمنين إسكيا الحاج محمد ، ودولته مع عقبه مائة عام ، وواحد . وتاريخه رابع عشر من جمادى الأخرى فى العام الثامن والتسعين فى القرن التاسع ، وآخرها سابع عشر من جمادى الأخرى فى العام التاسع والتسعين فى القرن العاشر ، ثم الشريف الهاشمى السلطان ، مولاى أحمد الذهبى ، وتاريخه انقراض دولة أهل سغى.

وهو السابع عشر من جمادى الأخرى فى العام التاسع والتسعين فى القرن العاشر ، وكان مُلكه فيها اليوم خمساً وستين سنة .

---

(١) الزريبات : هى البيوت المبنية من أغصان النباتات .

(٢) مسجد سنكرى : من أشهر المساجد فى تنبكت ، بنتْه امرأة ثرية ويُعتبر بمثابة جامعة علمية .

أما اكل سلطان توارق [1] ، فقد بقى فى أيام سلطنته على حالهم القديمة من سكن البرارى فى الحلات يتبعون المراتع . وفوض أمر البلد على تنبكت كى محمد نض وهو صنهاجى ، من قبيلة اجر أصله شنجيط [2] ، وهو أصل جميع هذه القبيلة ، كما أن أصل أهل ماسنة تشيت وأهل تفرست بير ، بعد ما خرجوا من الغرب . وأمه بنت سوم عثمان وهو فى دولة أهل ملى ، من أرباب هذا المكان واللقب ، الذى تبدَّل بتبدله الدولة ، وبيده الأمر والنهى ، والقبض والدفع وغير ذلك .

الحاصل هو حاكم البلد ، فبنى المسجد المعروف ، وجعل صاحبه وحبيبه الولى ، الفاضل القطب الكامل ، سيدى يحى التادلسى ، إماماً فيه ، فتوفيا معاً فى آخر هذه الدولة .

ورأى الشيخ محمد نض فى آخر عمره فى المنام ليلة واحدة ، إن الشمس غربتْ فغاب القمر بعدها فى فورها فقصَّها على السيد ، فقال له : إنْ كنتَ لا تخاف عبَّرتُها لك ، فقال : لا أخاف . قال : أموت وتموت بعدى بقرب . فاغتمَّ ساعتئذ فقال : ألستَ قلتَ إنك لا تخاف . فقال : هذا الغم ليس من خوف الموت ، إنما هو من حنانه على أولادى الصغار ، فقال له : فوض أمرهم إلى الله تعالى ، فمات سيدى يحى .

فعن قليل ، مات هو رحمهم الله تعالى ودُفنَ فى مجاورة السيد فى ذلك المسجد . وقيل : ذهب بصره فى أخريات عمره ولم يفطن به الناس ، إلا ليلة وفاة السيد لما زُوحِمَ على جنازته أخذ يضرب الناى بالسوط . وإذا كان بصيراً لا يضرب أولئك الناس . وبعد وفاته ولى السلطان اكل ولده الأكبر عمار ، مقامه . ثم تبيَّنوا فى آخر دولتهم بالظلم الفاحش ، الكثير الطغيان ، الكبير . وبقوْا يسعوْن فى الأرض فساداً ، ويُخرجون الناسَ من ديارهم قهراً ، ويَزنُون بحرمائهم ، وما هى عادتهم مع تنبكت كى من العطية منعه منها اكل .

وكلُّ ما جاء من الغرامة فلتنبكت كى منها ثلثها عادة ، ومتى جاء من الحلات

---

(١) الطوارق : قبائل بربرية تعود فى أصولها إلى صنهاجة . وقد أسلموا فى عهد دولة الأدارسة ، وقد قامت هذه القبائل بدور كبير فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا .

(٢) شنجيط : عاصمة دولة موريتانيا الآن ، ومعنى الاسم : واحة عيون الخيل .

ودخل البلد يكسبهم منها ويضيفهم ، ويفعل فيها جميع مُرواته . والثلثان يقسمها على خُدامه القينين . وفى يوم واحد جاءه ثلاثة آلاف مثقال ذهباً ، ففرَّقها عليهم بالعود فى يده . وعادتهم أنْ لا يمسُّوا الذهب بأيديهم ثلاثة فرق . فقالوا : هذا ثمن كسوتكم ، وهذا ثمن أسواطكم ، وهذا عطية لكم . قالوا : هذه لتنبكت كى عادة . قال : ومنْ تنبكت كى ؟ وما يعنى ؟ وما فائدته ؟ اذهبوا به فهو لكم غضب .

وجمع كيده فى الانتقام منه ، فبعث لسن على سراً أنْ يأتى ، حتى يُمكِّنَ له تنبكت فيملكه وأضعف له أحوال اكل فى كل شيء ، فى قدره ، وفى جسمه وبعث له نعله ليعلم حقيقته وهو رجل نحيف قصير جداً . فأنعم له سن على .

فبينما اكل وتنبكت كى عمر ذات يوم جالسين على نبكه امظغ ، فإذا بخيل سُن على وقوف فى ساحل البحر [1] من جهة كرم ، فعزم اكل على الهروب ساعتئذ وهو هروبه إلى بير مع فقهاء سنكرى . وأما وراء البحر ما دخل فيها ملك التوارق أصلاً ، فشرع تنبكت كى فى إرسال القوارب ، الذين يقطعون فيها .

ثم جاء سُن على فى جهة هوص ، فهرب عمر إلى بير خوفاً من مؤاخذة سُن على ما صدر منه قبل المخالفة ، فقال لأخيه المختار بن محمد نض ، هذا الرجل ولا بد أن ينتقم منى وتأخر إلى الغد وامض إليه بنفسك ، كأنك تخبره به . وقل له : من أمس ما رأينا أخى عمر ولا أحسبه إلا هرب . وإذا سبقت إليه بذلك الخبر لعل إنشاء الله يجعلك تنبكت كى . فتبقى دارنا فى ستر الله .

وإذا ما فعلتَ هذا التدبير لا بد يقتلنى ويقتلك ويخرب دارنا ، ويُشتِّت شملنا ، فكان الأمر بقدرة الله وإرادته كما ظن عمر وهو رجل عاقل ، فطن ، لبيب . ثم دخل تنبكت وخربها كما سيأتى إنشاء الله تعالى ، ذكره بعد ذكر العلماء والصالحين الساكنين بتنبكت تبركاً بهم ، أنالنا الله تعالى بركاتهم فى الدارين .

---

(١) نهر النيجر .